العـلاقات الاسـلامية البيزنطية

فى

فترة حكم النساء وأزواجهن

(١٠٢٨ ـ ١٠٥٦م = ٤١٩ ـ ٤٤٨هـ)

أ٠د٠ علية عبد السـميع الجنزورى(١)

كان للعلاقات الاســـلامية البيرنطية على امتداد تاريخ العصـــور الوسطى دور بارز فى تكييف تاريخ العـــالم كـــكل ، وتاريخ المسـلمين والبيزنطيين على وجه الخصوص ٠

والواقع أن أغلب حلقات تلك العـــلاقات نالت حظها الوافر من الدراسة والبحث المستفيض سواء من الجانب الاســـلامى أو من الجانب البيزنطى ، ولكن بقيت بعض الجوانب القليلة التى لم يركز عليها الضوء الا قليلا ٠ وقد آثرت أن أتناول أحد تلك الجوانب لالقاء بعض الضـــوء على العلاقات بين الطرفين فى فتـــرة حـــكم زوى Zoe وثيودورا Theodora ابنتى الامبراطور قنسطنطين الثـــامن Constantine VIII (١٠٢٥ ـ ١٠٢٨م/٤١٦ ـ ٤١٩ هـ) ، الذى ينتهى باعتـــلائه العرش البيزنطى العصر الذهبى للامبراطـورية البيزنطية ٨٤٣ ـ ١٠٢٥م(٢)/ ٢٢٩ ـ ٤١٦هـ ٠

أما عن قنسطنطين الثامن هـــذا ، فهو ـ آخر الذكور فى الأسرة

---

(١) أستاذ تاريخ العصور الوسطى ورئيس قسم التاريخ بكلية البنات ـ جامعة عين شمس ٠

2. Ostrogorsky (G.): History of the Byzantine State, Oxford, 1968, p.210.

المقدونية ـ وكان شريكا فى الحكم Co-Emperor (٣) لأخيه باسل الثانى (٩٧٦ ـ ١٠٢٥م /٣٦٥ ـ ٤١٦هـ) لمدة نصف قرن تقريبا ، الا أنه كان شريكا ضعيفا ، فظل خامل الذكر الى جوار شقيقه القوى · وعندما تقدم به السن صار امبراطورا بالاسم فقط ، فقضى معظم وقته فى حضور مآدب الطعام والشراب والاستمتاع بحفلات المسرح التى أنفق وبدد فيها ـ بطيش واهمال ـ الايرادات المالية الضخمة للامبراطورية التى كان باسل الثانى قد جمعها · ولذا وصف بأنه كان امبراطورا فاسقا مسرفا(٤) ·

هذا هو رأى المصدر البيزنطى فى قنسطنطين الثامن ، أما المصدر السريانى فينقله لنا ـ ابن العبرى ـ الذى انفرد وحده بالرأى القائل بأنه كان « لطيفا مهذبا دمث الأخلاق وكان رجـــلا ذا نفس عظيمة »(٥) ، وبتعبير آخر كان دمث الخلق بشوشا شهم النفس(٦) ·

---

(٣) كان لنظام الامبراطور المشارك فى الدولة البيزنطية أهمية خاصة فى الحفاظ على نظام توريث العرش فى الأسر الحاكمة الشرعية · ولم يكن هذا النظام يخضع للقانون فى بيزنطة كما كان الحال فى روما ، وعليه فقد أخذ أباطرة بيزنطة يتبعون أسلوبا عمليا فى اختيار خليفتهم المرغوب فيه بتعيينه امبراطورا مشاركا ، وذلك فى فترة حكمهم وقبل وفاتهم·وكان هذا الامبراطور يلبس التاج ويمنح اللقب الامبراطورى، بل ان صورته كانت تظهر غالبا جنبا الى جنب مع الامبراطور الفعلى على النقود، وكان اسمه يدرج فى المراسيم الامبراطورية· وعند وفاة الامبراطور الفعلى ، يحل الامبراطور المشارك محله ويتمتع بكامل ســـلطات الامبـــراطور ، وبذلك يحفظ حق بقاء العرش فى داخل الأسرة الامبراطورية ويدعم استمرارية الدولة · ولقد استمر اختيار الامبراطور المشارك من الأسرة الحاكمة الشرعية حتى خرقت تلك القاعـــدة على عهد الامبراطور قسطنطين السابع (٩١٣ ـ ٩٥٩م/٣٠١ ـ ٣٤٩هـ) عندما عين والك زوجته رومانوس ليكابينوس فى ديسمبر ٩٢٠م/٣٠٨هـ امبراطورا مشاركا له · مما كان له أثره فى خروج العرش من الأسرة الشرعية الى أسرة غير شرعية ·
(Ostrogorsky : Ibid, P.P. 107,264).

4. Ostrogorsky: Ibid, P.P.298, 302

5. Bar Hebraeus: The chronography of Gregory Abul Faraj, V. 1,P.191.

(٦) ابن العبرى : تاريخ الزمان ، نقله للعربية الأب اسحق أرملة السريانى ، بيروت١٩٨٦ ، ص ٨٣ ·

ومهما يكن الأمر ، فقد توفى قنسطنطين الثامن فى ١٠٢٨م/٤١٩هـ ولم يكن له أولاد ذكور(٧) وترك ثلاث بنات فقط(٨) ، كانت أكبرهن وهى ايودوكيـــا Eudocia مشوهة الوجه من أثر مرض الجدرى ، لذا اختارت حياة الرهبانية(٩) ٠ وعلى ذلك لم تكن كبرى بنات قنسطنطين الثامن هى التى «ملكها الروم»(١٠) عليهم بعد والدها ٠

واذا كانت بعض المصادر العربية والسريانية قد أشارت الى أنه بوفاة قنسطنطين (ملك الروم) انتقل ملك الى بنت له ، وقام بتدبير الملك والجيوش زوجها وهو ابن خالهـــا»(١١) أو أنه أوصى بالمملكة « حين احتضاره لابن أخيه رومانوس » أو « صهره زوج ابنته »(١٢) ، فان المصادر والمراجع الغربية تشير الى أنه على خلاف المعتاد ، وعندما كان الامبراطور قنسطنطين الثامن على فراش الموت ، حاول أن يزوج احدى بناته ـ أى احدى الأميرتين المسنتين(١٣) ـ وبحث عن زوج مناسب٠وفى اللحظات الأخيرة قبل وفاته وقع اختياره على رئيس المدينة رومانوس أرجيروس Romanus Argyrusالذىكان ممثلا بارزا للارستقراطيةالوطنية فى العاصمة ، وكان يشرفه انتماؤه الى أســرة بيزنطية عريقة ٠ هـــذا

---

7. Ostrogorsky: Op.cit, P.321.

(٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، بيروت ١٩٨٢م ـ ١٤٠٢هـ ، جـ٩ ، ص ٤٩٨ ؛ القلقشندى : صبح الأعشي ، ١٩٨٠ ، جـ٥ ، ص ٤٠٠ ؛
Ostrogorsky: Op.cit, P.321

9. Ibid, P.321.

(١٠) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٩٨ ؛ القلقشـــندى : صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص ٤٠٠ ٠

(١١) ابن الأثير : المصدر السابق ، جـ٩ ، ص ٣٧ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتـــب ، جـ ٤ ، ص ٢٧٠ ٠ وغالبية المصادر العربية تطلق على امبراطور الروم اسم ملك الروم ٠

(١٢) ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ٨٣ ٠

(١٣) كانت زوى وثيودورا قد ودعتا سن الشباب ، لكنهما كانتا آخر أعضـاء الأسرة المقدونية ، وعليه فقد قدر لهما أن تلعبا دورا مهما فى التاريخ البيزنطى خلال السنوات التالية ٠

Ostrorsky: Op.cit, P. 321.

(مجلة المؤرخ العربى)

بالاضافةالىوظيفته السامية · ذلكأنوظيفةرئيسالمدينة Eparch of the City كانت باستمرار ـ خاصة بالنسبة للقسطنطينية ـ وظيفة كبرى · وقد زادت مكانتها فى القرن الحادى عشر ، بعد أن وصف كتاب المراسيم Book of Ceremonies فى القرن العاشر الرئيس أو الابرش بأنه (أبو المدينة) ، بل قيل ان تلك الوظيفة كانت من المناصب الامبراطورية الرفيعة ، وأن صاحبها لا يفرقه عن الامبراطور شيء سوى لبس الأرجوان(١٤) ·

وكان أن تزوج رومانوس من زوى فى ١٢ نوفمبر ١٠٢٨م/٢٢ شوال ٤١٩هـ ، وكانت العروس آنذاك فى الخمسين من عمرها · وبعد مرور ثلاثة أيام على وفاة قنسطنطين الثـــامن ارتقى رومانوس العرش باسم رومانوس الثـــالث أرجيروس(١٥) وامتـــد حـــكمه من ١٠٢٨ الى ١٠٣٤م(١٦)/٤١٩ ـ ٤٢٦هـ ، وكان على قدر من الثقافة والنضج،اذ كان عند زواجه فى الستين من عمره · أما عن مواهبه الطبيعية كحاكم فكانت ضعيفة تماما ، لكنه « حاول أن يحذو حـذو الشـخصيات البـارزة فى الماضى ، والتى كانت أطيافها تسبح باستمرار أمام عينيه »(١٧) ·

---

14. Ostrogorsky: Ibid, P.321; Hussey (J.M.) Cambridge Medieval History, vol. IV,The Byzantins Empire, Part 1, Byzantine and its Neighbours, Chapter V, The Later Macedonians, The Comneni and the Angeli 1025-1204, Cambridge 1966, P.195.

ويذكر رنســـيمان أن رئيس المدينة كان مسئولا عن الشرطة والأمـــن وضـــبط النظام وتوزيع جرايات الخبز وغير ذلك · (رنسيمان : الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، ١٩٦١ ، ص ٩٤) ·

15. Ostrogorsky: Op.cit, P.P.321-322.

كان لابد لرومانوس أرجيروس من أن يطلق زوجته السابقة ، فتحولت الى سلك الراهبات رغم معارضة الكنيسة ، وذلك كى يتم تلك الزيجة الجديدة ويصل الى الحكم ،ويلبس الأرجـوان ·

(Previte Orton; The shorter Cambridge Medieval History, V.1, P.273, Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V.IV, Part 1, Chapter V, P.195)

16. Previte Orton: Op.cit, V.1, P.273.

17. Ostrogorsky: Op.cit, P.322.

أما زوجته الامبراطورة زوى ، فكانت الابنة الوسطى للامبراطور الراحل قسطنطين الثامن ، وكانت على قدر كبير من الجمال الذى شهد به بعض المؤرخين المعاصرين ، وعلى رأسهم (بسيلوس Psellus) وثمة صورة رائعة رسمها لها أحد كبار الفنانين بالفسيفساء فى كنيسة سانت صوفيا فى صالة العرض الخاصة بالنساء • وكانت بسبب شدة جمالها تثير الانتباه ـ حتى فى كهولتها ـ وذلك ببشرتها الصافية الناعمة وباهتمامها بأناقتها ومظهرها(١٨) • ولكنها كانت طموحة ، ساذجة ، تعتقد بشدة فى كلام العرافين والمشعوذين • ولم تكن لديها أية دراية بفن الحكم(١٩)• هذا الى أنها كانت تتصف بالانانية والتهور والتبذير(٢٠)•

هكذا حكم رومانوس الثالث الامبراطورية البيزنطية شريكا للامبراطورة زوى(٢١) وهو الذى أشار اليه المصدر العربى باسم (أرمانوس) (٢٢) •

والواقع أنه منذ اللحظة الأولى لزواج زوى من رومانوس ، ولمدة

---

18. Hussey: Op.cit, Cam Med. Hist, vol.IV,Part1, ChapterV,P.194

هنا قد يتساءل البعض عن سر بقاء تلك الامبراطورة دون زواج حتى سن الخمسين رغم جمالها وأناقتها وحسن مظهرها ؟ الا أن الاجابة تستنتج أو تستشف من أن ذلك حدث بعد اخفاقها فى حبها الأول • فقد قرأنا عن مفاوضات دارت من أجل زواج الامبراطور الغربى الشاب أوتو الثالث Otto III منها ، الا أن تلك المفاوضات لم يقدر لها النجاح ، فعندما توجهت الى ايطاليا فى يناير ١٠٠٢م/٣٩٢هـ لتلقى العلم فوجئت بخبر وفاة خطيبها وهو فى ريعان شبابه ، وذلك عند وصولها الى مدينة (بارى) الايطالية •

(Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist. vol. IV, .Chapter V, P.P 184-187).

19. Hussey: Ibid, P.194.
20. Previte Orton: Op.cit, V.1,P.273.
21. Previte Orton: Ibid, P.273, The Encyclopedia Americana, International Edition, V.29, 788.

(٢٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤٣٨ ، ٤٩٨ ـ ٤٩٩ ؛ أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، جـ٢ ، ص ١٥٧ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٤ ، ص ٢٧٠ •

عدة سنوات ، كان هناك حاجز واضح بينهـــا وبينه ، فبمجرد اعتـــلاء رومانوس العرش البيزنطى ، نبذ زوى الامبراطورة الكهلة وتركها كما مهملا . هذا بالاضافة الى أنه ضيق عليها فى المصروف(٢٣) .

وبخصوص العلاقات الاسلامية البيزنطية فى عهد رومانوس وزوى نجد أن المراجع الغربية اشارت اليها فى شىء من الاقتضاب، حيث قالت « ولسوء حظ رومانوس أرجيروس فانه هزم فى بلاد الشام » . وقـــد تعرضت العاصمة القسطنطينية فى عهـده لعدة كوارث منها الطاعون ، والجراد ، المجاعة والزلزال(٢٤) . أما المصـــادر العـربية والسريانية فقد فصلت الحديث وكشفت النقاب أكثر عن تلك الحلقة من العلاقات بين الجانبين الاسلامى والبيزنطى .

من ذلك ما يقوله ابن الأثير من أن «ملك الروم » ـ أى الامبراطور البيزنطى ـ خرج الى بلاد الشام فى ٤٢١هـ/١٠٣٠م(٢٥) بجيش يقدر بثلاث مائة ألف مقاتل ، وتوجه الى حلب التى كانت بيد شـــبل الدولة نصر بن صالح بن مرداس(٢٦) وعسكروا بالقرب منها« فلحقهم عطش شديد ، وكان الزمان صيفا وكان أصـــحابه مختلفين عليه ، فمنهم من يحسده ومنهم من يكرهه »(٢٧) .

وفى ذلك الموقف الصعب أشار رومانوس على من معه بالتريث حتى يسقط المطر وتتوافر الميـــاه ، لكن « ابن الدوقس » ـ وهـــو من أكابر الروم ـ رفض تنفيذ هذا الرأى وأشار بالاسراع فى الحركة « قصرا لشر يتطرق اليه ، ولتدبير كان قد دبره عليه » ورافقه ابن لؤلؤ فى عشرة آلاف

---

23. Ostrogorsky: Op.cit, P.323, Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, vol. IV, Part 1, Chapter V, P. 196.
24. Previte Orton: Op.cit, V.1, P.273.

(٢٥) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٠٤ .
والمقصود بملك أو امبراطور الروم هنا رومانوس الثالث أرجيرس لأن ذلك كان فى فترة حكمه .
(٢٦) قامت أسرة صالح بن مرداس فى حلب ٤١٤هـ/١٠٢٣م واستقلت بالأمر فيها حتى ١٠٧٩م (حسن حبشى : الحرب الصليبية الأولى ، ص ١٥) .
(٢٧) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٠٤ .

فارس وسلكوا طريقا آخر٠عندئذ خلا بالملك أحد أصحابه واعلمه أن ابن الدوقس وابن لؤلؤ قد حالفا أربعين رجلا ، هو احدهم،على الفتك به ٠ وعندئذ خاف رومانوس « ورحل من يومه راجعا »(٢٨) ٠

ولم يلبث أن لحق به ابن الدوقس وسأله عن سبب رجوعه ،فأرجع ذلك الى اجتماع العرب عليهم وقربهم منهم ٠ ولم يلبث أن قبض على ابن الدوقس وابن لؤلؤ ومن معهما ، ورحل الامبرطوار راجعا فتبعه « العرب وأهل السواد حتى الأرمن يقتلون وينهبون »(٢٩) ٠

ويقال أيضا ان سبب عودة الامبراطور الى بلاده أن حشدا قليلا من العرب هاجم القوات البيزنطية « فظن الروم أنها كبسة » فاحتاروا فيما يصنعون ، حتى ان ملكهم « لبس خفا أسودا وعادة ملوكهم لبس الخف الأحمر » عندئذ انهـــزم البيزنطيون وغـــنم المســـلمون جميع ما كان معهم (٣٠) ٠

أما ابن العبرى فيعطينا تفسيرا دينيا انفرد به ، لذا يجب علينا أن نتناوله بشيء من الحيدة والحذر ، وذلك حين يقول : « ان الملوك الســابقين لرومانوس ، نجحـــوا فى التخلص من اضـــطهاد المؤمنين لهم ، لذلك ازدهـــروا فى كل مكان ٠ لكن هـــذا الملك بدأ يضـطهد المسيحيين ، وأبعد عن طريق النفى انبطـــريرك المقـــدس ابن عبدون Mar Abdun وأساقفته ، وذلك اتباعا للعادة القديمة ، وعليه فقد حطم الله الروم الخادعين المضللين وسحقهم أمام أعدائهم»(٣١) ٠

---

(٢٨) نفس المصدر والجزء ، ص ٤٠٤ ـ٤٠٥ ٠

(٢٩) نفس المصدر والجزء ، ص ٤٠٥ ٠

(٣٠) نفس المصدر والجزء والصفحة ٠

31. Bar Hebraeus: Op.cit, V.1, P.191.

اما مترجم ابن العبرى فيعطينا ترجمة هذا النص على النحو التالى : « ان الملوك السابقين لرومانوس كان النصر حليفهم فى الحروب لأنهم لم يكونوا يتشبثون بالمسائل الدينية ٠ أما رومانوس هذا فقد عادى بطريركنا القديس ابن عبدون (١٠٠٤ـ ١٠٣٠م/٣٩٤ ـ ٤٢١هـ) وأساقفته ونفاهم جاريا على عادة اليونان المكارين القدماء، ولذا سمح الرب بسحقهم تجاه أعدائهم » ٠ (ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ٨٣)٠

وقد أوضح المؤرخ ابن الأثير خسائر البيزنطيين فى ذلك اللقاء مع المسلمين وحلفائهم.فقال انها كانت : « أربعمائة بغل محملة مالا وثيابا » الى جانب هلاك كثير من البيزنطيين من شدة العطش ، ولم ينج الا الملك وحده « ولم يسلم معه من أمواله وخزائنه شيء البتة وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا »(٣٢) .

أما المصدر السريانى،فيذكر أن خسائر البيزنطيين كانت «سبعين بعيرا محملة نقودا وآنية ذهبية وفضية وأقمشة فاخرة وبغالا كثيرة حتى بيع البغل الجيد فى حلب بدينارين » . ولم يبق مع الملك رومانوس فيما قيل « خيمة أو كأس يشرب بها ماء »(٣٣) .

ثم كان أن حدث سنة ٤٢٢هـ/١٠٣١م أن استولى البيزنطيون على مدينة الرها من المسلمين . وتفصيل ذلك أن الرها كانت بيد عطير النميرى ، فاستولى نصر الدولة بن مروان حاكم ديار بكر على حران وجهز من قتل عطيرا حاكم الرها . فشفع صالح بن مرداس حاكم حلب الى نصر الدولة أن يعيد الرها الى ابن عطير والى ابن شبل مناصفة ، فقبلشفاعته وسلمها اليهما وذلك فى سنة ٤١٦هـ/١٠٣٣م)(٣٤).وكانفى الرها برجان حصينان أحدهما أكبر من الآخر فتسلم ابن عطير الكبير وابن شبل الصغير . وظلت المدينة معها حتى تلك السنة ٤٢٢هـ ، فراسل ابن عطير الامبراطور البيزنطى رومانوس وباعه حصنه بعشرين ألف دينار . هذا بالاضافة الى عدة قرى من بينها أرية سن ابن عطير . وتسلم البيزنطيون البرج الذى كان له ودخلوا البلد عنوة فملكوه ، وهرب منه أصحاب ابن شبل ، عندئذ قتل البيزنطيون المسلمين وخربوا المساجد(٣٥) .

---

(٣٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٠٥ .

(٣٣) ابن العبرى . تاريخ الزمان ، ص ٨٣ ـ ٨٤

Bar Hebraeus: V,1, P.192.;

(٣٤) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، جـ٢ ، ص ١٥٧ .

(٣٥) ابن الأثير . الكامل ، جـ٩ ، ص ٤١٣ ؛ أبو الفدا : المصدر السابق نفس الجزء والصفحة وابن شبل هو ابن شبل الدولة بن صالح بن مرداس .

وعندما سمع نصر الدولة الخبر سير جيشا الى الرها ، فحاصرها « وفتحها عنوة » واعتصم من بها من الروم بالبرجين ، واحتمى النصارى بالبيعة الخاصة بهم، « وهى من أكبر البيع وأحسنها عمارة »، فحاصرهم المسلمون وأخرجوهم ثم قتلوا أكثرهم ونهبوا البلد . وبقى البيرنطيون فى البرجين ، فسار اليهم جيش بيزنطى عظيم يقدر بنحو عشرة آلاف مقاتل ، فانهزم أصحاب ابن مروان أمامهم ، وعندئذ دخل البيزنطيون البلد وما جاوره من بلاد المسلمين وصالحهم ابن وثاب النميرى على حران وسروج « وحمل اليهم خراجا » عنهما(٣٦) . وقد أشار ابن الأثير فى موضع آخر الى استيلاء البيزنطيين على الرها فى عهد الامبراطور رومانوس بشيء من الايجاز بقوله : « وهو الذى ملك الرها من المسلمين »(٣٧) .

وفى تلك السنة أيضا ٤٢٢هـ/١٠٣١م استولى البيزنطيون على قلعة أفامية بالشام . ويرجع السبب فى ذلك الى أن الخليفة الفاطمى الظاهر(٣٨) أرسل وزيره الدزبرى(٣٩) الى الشام فملكه . ثم قصد

---

(٣٦) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤١٣ .

(٣٧) نفس المصدر والجزء ، ص ٤٩٨ .

(٣٨) هو أبو الحسن على بن منصور بن نزار بن معد ، ولد ليلة الأربعاء لعشر خلون من شهر رمضان سنة خمس وتسعين وثلاث مئة . بويع له يوم عيد الأضحى سنة احدى عشرة وأربع مئة . (ابن ايبك الدوادارى : كنز الدرر وجامع الغرر، جـ ٦ ، الدرة المضية فى أخبار الدولة الفاطمية ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٣٨٠هـ - ١٩٦١م ، ص ٣١٣) ؛ المقريزى : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق الدكتور محمد حلمي محمد أحمد ، جـ ٢ ، القاهرة ١٣٩٠هـ - ١٩٧١م ، ص ١٢٤ .

(٣٩) الدزبرى أو التزبرى هو الأمير المظفر أمير الجيوش ، عدة الامام سيف الخلافة عضد الدولة شرف المعالى أبو منصور أنوشتكين ، مولده بلاد ما وراء النهر فى بلد الترك فى البلد المعروف بختل ، وسبى منه وحمل الى كاشغر ، وهرب الى بخارا وملك بها وحمل الى بغداد ثم الى دمشق سنة ٤٠٠هـ فاشتراه القائد تزبر بن أونيم الديلمى . ثم انتقل الى ملكية الحاكم بأمر الله عام ٤٠٣ هـ ، وصار يرتقى حتى سيره مع سديد الدولة ذى الكفايتين الضيف فى العسكر الى الشام عام ٤٠٦هـ ، ثم تولى =

حسان بن المفرج الطائى ، وألح فى طلبه فهرب منه ،ودخل الى الأراضى البيزنطية « ولبس خلعة ملكهم وخرج من عنده وعلى رأسه علم فيـــه صليب » وبصحبته جيش كبير ، فسار الى أفامية وباغتها واستولى عليها، وغنم ما فيها وسبى أهلها وأسرهم » . وعندئذ أرسل الدزبرى يســتنفر الناس للغزو(٤٠) .

وفى ١١ أبريل ١٠٣٤م(٤١)/جمادى الأولى ٤٢٥هـ مات رومانوس الثالث فى الحمام ، نتيجة لمؤامـــرة دبرت بالاتفاق بين زوى وعشيقها ميخائيل البافلاجونى Michael the Paphlagonian للتخلص منه .

وقد تباينت الأراء فى المصادر والمراجع العربية والأجنبية حول كيفية التخلص من رومانوس منها :

ان زوى وميخائيل أعملا الحيلة فى قتله ، فمرض « فادخـــلاه الحمام كارها وخنقاه » وأظهرا أنه مات فى الحمام(٤٢) . ومنها أن زوى دست ميخائيل عليـــه فقتله(٤٣) ، أو أنه توفى نتيجة لدفع زوى وعشيقها له بالقوة تحت الماء . ومهما يكن الأمر فان زوى بعد أن شاع خبر وفاته اكتفت بأن دخلت الحجرة التى يرقد فيها وألقت عليه نظرة واحدة ثم انصرفت(٤٤) .

=

بعلبك ، ثم قيسارية ثم تنقـل فى الوظائف حتى انتهى الى ولاية دمشـــق . (ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، طبعة بيروت ١٩٠٨ ، ص ٧١ ــ ٧٥ ؛ المقـــريزى : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، جـ٢ ، ص ١٣٢ حاشية (١) للمحقق د. محمد حلمى محمد أحمد) .

(٤٠) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٢٠ ؛ أبو الفدا : المختصر فى أخبـــار البشر ، جـ٢ ، ص ١٥٨ .

(٤١) Ostrogorsky: Op. cit P.323.

(٤٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤٩٩ .

(٤٣) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٤٠٠ .

44. Hussy: Op.cit Cam. Med. Hist, vol IV, Part 1, Chapter V, P 196.

ولم تلبث زوى أن تزوجت بعد ذلك مباشرة من عشيقها الشـــاب ميخائيل البافلاجونى ، رغم المعارضة الشديدة التى تعرضت لها(٤٥) . وكان أن ارتقى ميخائيل العـــرش البيزنطى باســـم ميخائيل الـــرابع Michael IV ١٠٣٤ - ١٠٤١م(٤٦)/٤٢٥ - ٤٣٣هـ « على كره من الروم » على قول ابن الأثير(٤٧) .

وكان ميخائيل من أصـل وضيع(٤٨) اذ كان ابنا لأحـــد فلاحى بافلاجونيا(٤٩) ، وهو الذى أشار اليه ابن الأثير بقوله أنه « رجل صيرفى ليس من بيت الملك وانما بنت قسطنطين اختارته »(٥٠) .

ويدين ميخائيل الرابع بارتقائه العـــرش لأخيـــه John the Orphantrophus وهو أحد الخصيان ذوى النفوذ والســـطوة فى القصر الامبراطورى ، فأحضره للقصر وصمم على أن ينتزع له العرش - الذى كان محروما منه لأنه خصى - وعنـــدئذ وقعت الامبراطورة العجوز فى حبه وتزوجته(٥١) .

ورغم أن ميخائيل الرابع أثبت أنه حاكم قدير وقائد شجاع(٥٢) ، الا أنه كان يعانى من مرض خطير(٥٣) ، فقد « أصـــابه الصرع ودام

---

45. Ibid: P.196.
46. Ostrogorsky:Op.cit, P. 323. The Encyclopaedia V. 29, P.788.

(٤٧) ابن الأثير . الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٩٩ .

48. The new Encyclopaedia Britanica, vol VI, P. 858, The Encyclopaedia Americna, V. 19, P. 11.
49. Ostrogorsky: Op.cit, P.323.

(٥٠) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤٣٨ .
وربما خلط القلقشندى بينه وبين أخيه حنا عندما ذكر أن زوى زوجة رومانوس مالت « الى التحكم فى دولته » (القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص ٤٠٠).

51. Ostrogorsky:Op.cit,P.323; The New Encyclopaedia Britannica, vo. VI, 1768, P.858.
52. Ostrogorsky: Op.cit, P.324
53. Ibid : P. 324: Previte Orton : Op. cit, P. 273; Larousse Encyclopaedia of Ancient and Medieval History, General

=

به »(٥٤) . ولذا ترك تصريف دفة الحكم كلية لأخيه الخصى حنا(٥٥) .

أما عن العلاقات الاسلامية البيزنطية فى تلك الفترة ، فقد تردد فى المصادر ، أن الروم أســـتولوا فى ٤٢٥هـ/١٠٣٤م على قلعة بركوى وكانت متاخمة لبلاد الأرمن ، تحت حكم ابن الهيجاء ابن ربيب الدولة ابن أخت دهسوذان بن مملان ، فاختلف هو وخاله ، فبعث الأخير الى البيزنطيين وأغراهم بالاســـتيلاء عليها . وبالفعل أرســـل الامبراطور البيزنطى جيشا كبيرا استطاع الاستيلاء عليها . ولما وصـــل الخبر الى الخليفة القائم بأمر الله « أرسل الى أبى الهيجاء وخاله من يصلح بينهما ليتفقا على استعادة القلعة » فاصطلحا بالفعل . لكنهما لم يتمكنا من استعادتها رغم انضمام عدد كبير من المتطوعين اليهم ضد البيزنطيين ، وذلك لثبات أقدام الأخيرين فيها(٥٦) .

وفى ٤٢٦هـ/١٠٣٥م جمع ابن وثاب النميرى جيشا كبيرا من العرب واستنجد بالبيزنطيين الموجودين بالرها « فسار معه منهم جيش كثيف»، وهاجم ممتلكات نصر الدولة ابن مروان، ونهب وخرب . عندئذ توجه ابن مروان بقوات ضخمة لمواجهة ابن وثاب وحلفائه ، مما دفعهم للتراجع . وكان أن أرسل ابن مروان الى امبراطور الروم «يعاتبه على نقض الهدنة،

Editor: Marcel Dunan Honorary Foreword by A. Toyenbee, P. 297; The Encyclopaedia Americana, V. 19, P. 12;

ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٩٩ . وهنا يعزى بريفيت أورتون سبب ذلك المرض الى شعور ميخائيل بالندم ، نتيجة اشتراكه فى قتل رومانوس الثالث .

(٥٤) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص ٤٠٠ .

55. Previte Orton: Op. cit P.273; The Encyclopaedia Americana, V. 19, p. 12.

(٥٦) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٣٧ .

كان الخليفة العباسى آنذاك هو القائم بأمر الله أبو جعفر بن القادر ، الذى ولد فى نصف ذى القعدة سنة احدى وتسعين وثلثمائة . ولى الخلافة عند موت أبيه فى يوم الاثنين الحادى عشر من ذى الحجة سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة ، وكان ولى عهده فى الحياة ، وهو الذى لقبه بالقائم بأمر الله . (السيوطى : تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، الطبعة الأولى ١٣٧١هـ/١٩٥٢م ، ص٤١٧).

وفسخ الصلح الذى كان بينهما » ٠ وأرسل يستنجد بحكام الأطـــراف ، « فكثر جمعه من الجنـــد والمتطوعة » وعزم على التوجـــه الى الرها ومحاصرتها ، فقدمت رسل الامبراطور البيزنطى تفيد بأنه « يعتـــذر ويحلف أنه لم يعلم بما كان» ٠ثم أرسل الامبراطور الى قواته التى بالرها والى قائدهم يستنكر ما قاموا به ٠ وفى نفس الوقت أهدى الى نصر الدولة هدية قيمة ، فتراجع عما كان قد عـزم عليه من غـــزوهم وفرق القوات المجتمعة معه(٥٧) ٠

وفى نفس السنة أيضا ٤٢٦هـ/١٠٣٥م تقدمت القوات البيزنطية الى ولاية حلب فخرج اليهم حاكمها شبل الدولة بن صالح بن مرداس ، فاقتتل الفريقان وهزم حاكم حلب البيزنطيين ، وتبعهم الى عزاز ، وغنم غنائم كثيرة وعاد سالما(٥٨) ٠

أما فى ٤٢٧هـ/١٠٣٦م فقد توجه ابن وثاب النميرى ، حاكم حران ومعه جيش كبير من الأكراد والمعديين الى « (سويرك) وهى للـروم ودوخها » وقتل من أهلها ثلاثة آلاف وخمسمائة شخص وسبى مجموعة من النساء والفتيان ٠ ثم زحف الى الرها وحاصرها ومنع عنها المؤونة. وعندما ضاق الأهالى بالحصار ســـــلموه المدينة ، فانهـــزم البيزنطيون وتحصنوا فى برج المدينة ،فقاتلهم المسلمون وفتكوا بمائتين وخمسين رجلا وتعذر عليهم الاستيلاء على البرج ، « فنهبوا المدينة » وعادوا ٠ ويقال ان عدد الفتيات والفتيان الذين سبوهم كان ثلاثة آلاف نسمة(٥٩) ٠

ومن ناحية أخرى ، فانه حدث خلال مدة حكم ميخائيل الرابع مع زوى ، التى استمرت سبع سنوات ، أن عقدت الامبراطورية البيزنطيـة معاهدة مع الخلافة الفاطمية فى مصر وأحـــرزت انتصارات مؤقتة فى

---

(٥٧) ابن الأثير ٠ الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٣٣ ٠ وهو يسمى الامبراطور البيزنطى هنا (ملك الروم) ٠

(٥٨) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ٤٤٤ ؛ أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، جـ٢ ، ص ١٥٩ ٠

(٥٩) ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ٨٦ ٠

جزيرة صقلية(٦٠) ٠

ففى ٤٢٧هـ/١٠٣٦م عقدت معاهدة بين ميخائيل الرابع والخليفة الفاطمى المستنصر بالله(٦١) ٠ وفى رجب ٤٢٧هـ/مايو١٠٣٦م تحالف كل من ابن وثاب وابن عطير وتصاهرا وجمعا قواتهما،وأمدهما نصرالدولة ابن مروان بجيش كبير ، وسار الجميع الى السويداء ٠وكان البيزنطيون قد أعادوا تجديد بنائها ، فحاصرها المسلمون « وفتحوها عنوة وقتلوا فيها ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل ، وغنموا ما فيها وسبوا خلقا كثيرا » ، ثم توجهوا الى الرها وحاصروها « وقطعوا الميرة عنهـــا » حتى غلت الاسعار بها غـــلاء شـــديدا ، وعندئذ خرج « البطريق » الذى بالمدينة متخفيا الى الامبراطور، وأخبره حقيقة الأمر، فأنجده خمسة آلاف فارس عاد بهم٠ولما علم ابن وثاب وقائد قوات نصر الدولة بذلك كمنا لهم، فلما اقتربوا منهم أخذوهم على غرة فقتل عـــدد كبير من البيزنطيين وأسر مثلهم ، كما أسر البطريرك أيضا وحمل الى باب الرها،وخيروا أهلها اما أن يفتحوا لهم باب المدينة أو يقتـــلوا انبطريرك والأسرى الذين معـه « ففتحوا البلد للعجز عن حفظه »٠ وتحصنت القوات البيزنطية الموجودة بالمدينة بقلعتها ، فدخل المسلمون المدينة ، وغنموا ما فيها « وامتلأت أيديهم من الغنائم والسبى وأكثروا القتل ، وأرسل ابن وثاب الى آمـد مائة وستين راحلة عليها رؤوس القتلى » ٠ وعندئذ سار حسان بن الجراح الطائى بجيش يقدر بخمسين ألف فارس « من العرب والروم نجدة لمن

---

60. The New Encyclopaedia Britannica, vol VI, (1768), p.p. 857-858.

(٦١) عندما توفى الخليفة الفاطمى الظاهر لاعزاز دين الله أبو الحسن على بن أبى على المنصور الحاكم فى منتصف شعبان سنة ٤٢٧هـ/يونيه ١٠٣٦م ، متأثرا بداء الاستسقاء الذى ظل يلازمه مدة عشرين سنة منذ صباه ، تولى بعده ابنه أبو تميم معد ، ولقب بالمستنصر بالله ، وكان مولده بالقاهرة سنة عشر وأربعمائة ، وفى أيامه كانت قصة البساسيرى وخطب له ببغداد سنة خمسين وأربعمائة ٠ وكان الحاكم فى دولته بدر بن عبد الله الجمالى الملقب بالأفضل أمير الجيوش ٠ (ابن الأثير : الكامل، جـ٩ ، ص ٤٤٧ ــ ٤٤٨) ؛ اما ابن العبرى فيذكر أن الظـــاهر خليفة مصر توفى فى ٤٢٧هـ/١٠٣٥م ٠

(Bar Hebraeus: Op.cit, V. 1, p. 196.

بالرها»، فسمع ابن وثاب بذلك فسار مسرعا لملاقاته قبل وصوله.وعندما خرج البيزنطيون الموجودون بالرها الى حران قاتلهم أهلها . وفى نفس الوقت عاد ابن وثاب مسرعا بمجرد سماعه ذلك الخبر فانقض على البيزنطيين وقتل منهم عددا كبيرا وعاد المنهزمون الى الرها(٦٢) .

أما فى ٤٢٩هـ(٦٣)/١٠٣٨م فقد عقدت معاهدة بين ميخائيل الرابع والخليفة الفاطمى المستنصر بالله ، تم فيها الاتفاق على أن يطلق الامبراطور البيزنطى سراح خمسة آلاف أسيرا مسلما ، على أن يسمح للامبراطور بأن يجدد بنيان كنيسة القيامة . وبالفعل أطلق الامبراطور سبيل الأسرى ، ووجه أحد خبراء العمارة الى بيت المقدس للقيام بتلك المهمة بعد أن أمده بالأموال الوفيرة ، حتى أتم مهمته على الوجه الأكمل ورممها « كما كانت من قبل »(٦٤) .

أما عن صقلية فقد تم الاستيلاء على مسينا ٤٢٩هـ/١٠٣٨م وعلى سيراكوزا ٤٣٢هـ/١٠٤١م ولكنها كانت انتصارات مؤقتة(٦٥) .

والواقع ان الجبهة الشرقية كانت محك العلاقات بين المسلمين والروم فى تلك الحقبة . وقد ذكر ابن العبرى أنه حدث فى سنة ٤٢٩هـ (١٠٣٨م) أن هاجم الأتراك الغز أرمينية أكثر من مرة « وقتلوا

---

(٦٢) ابن الاثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٤٨ ـ ٤٤٩ .

(٦٣) نفس المصدر والجزء ، ص ٤٦٠ ؛ د .محمد جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، دار الفكر العربى (١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م) ص ٢٤٥ ؛ ويذكر المقريزى فى اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، جـ٢ ، ص ١٨٢ أن ذلك كان فى ٤٢٧ هـ وأن المعاهدة كانت بين الخليفة الظاهر وميخائيل الرابع . أما ما ذكره Bar Hebraeus: Op.cit, V.1, P. 196. وابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ٨٨ فيختلف فى السنة فقط حيث يذكران أنها كانت ٤٢٧هـ .

(٦٤) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٦٠ ؛ محمد جمال الدين سرور : المرجع السابق ، ص ٢٤٥ . أما ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ٨٨ فيذكر أن عدد الأسرى كان خمسين ألفا وأنهم كانوا مسيحيين ومعتقلين فى مصر . والراجح أن ذلك الخطأ راجع للترجمة ، لأن المعاهدة بذلك الشكل تكون لمصلحة البيزنطيين دون المسلمين .

65. The New Encyclopaedia Britannica, V. VI (1768), P. 858.

خلقا كثيرا من أكرادها وعربها » واستولوا على غنيمة كبيرة . ثم زحفوا على أورميه بأذربيجان فانحدر أكراد الجبل واشتبكوا معهم وانتصر الغز، « وأجهزوا على عدد وافر منهم »(٦٦) ولما وجد الأمير صالح بن وثاب النميرى حاكم حران وأرمينية أنه عاجز عن مواجهة البيزنطيين والأتراك فى وقت واحد،عقد الصلح مع البيزنطيين وتخلى لهم عن الرها،فاستولوا عليها وزاد عددهم فيها(٦٧) . عندئذ عمر البيزنطيون الرها « العمارة الحسنة وحصنوها » فخاف المسلمون على حران منهم(٦٨) .

واذا كان ابن العبرى قد ذكر أنه حدث فى سنة ٤٣٠هـ/١٠٣٨م أن زحف البيزنطيون على بلاد الشام فتصدى لهم الأمير أنوشتكين بجوار حماه وتغلب عليهم وأسر ابن عم الامبراطور « وقتل خصيا كبيرا»(٦٩). فالراجح أنه أخطأ فى ذكر السنة ، اذ نرجح نحن أنها ٤٣٢هـ استنادا لما دونه ابن الأثير ضمن أحداث تلك السنة الأخيرة ، اذ ذكر أنه كانت هناك موقعة بين القوات المصرية والقوات البيزنطية وأن النصر فيها كان للمسلمين « كانت الوقعة بين عسكر المصريين ـ سيّره الدزبرى ـ ، وبين الروم ، فظفر المسلمون »(٧٠) . ويعنى بالمصريين هنا الفاطميين .

وقد رأينـــا كيف هادن الفاطميون البيزنطيين فى عهـد الخليفـة المستنصر باللـه الفاطمى وميخائيل الرابع سنة ٤٢٩ هـ ، لكن لم تمر سوى سنوات قليلة ، الا وتمت مراســلات سنة ٤٣٢هـ (١٠٤١م) بين الامبراطور البيزنطى وابن صالح بن مــرداس . ذلك أن الامبراطور

---

(٦٦) ابن العبرى : المصدر السابق ، ص ٨٩

Bar Hebraeus: Op.cit V. 1, P. 198;

(٦٧) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٦٠ ، ابن العبرى : المصدر السابق ، ص ٨٩ Bar Hebracus: Op.cit, V. 1, P. 198; ويذكر مترجم كتاب ابن العبرى أن الأمير ابن وثاب كان صاحب سورية وأرمينية .

(٦٨) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٦٠ .

(٦٩) ابن العبرى . تاريخ الزمان ، ص ٩٠

Bar Hebraeus: Op.cit, V. 1, P. 199,

ويذكر مترجم ابن العبرى أن الذى قتل كان حاجبا كبيرا لاخصيا (eunuch) كما ورد فى الأصل .

(٧٠) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٩١ .

ميخائيل أرسل الى ابن صالح « يستمينه » ، وراسله صالح ليتقوى به على الدزبرى ، خوف أن يأخذ منه الرقة • لكن عندما وصلت أخبار تلك الاتصالات الى الدزبرى ، هدد ابن صالح ، فاعتذر الأخير • ثم ان جمعا من عربان بنى جعفر بن كلاب دخلوا ولاية أفامية فعاثوا فيها ونهبوا عدة قرى ، فخرجت عليهم بعض القوات البيزنطية وقاتلتهم وهزمتهم وشتتت شملهم • وعندما أرسل حاكم حلب الى الدزبرى فى نفس السنة (٤٣٢هـ) يخبره أن البيزنطيين يتجهزون لمهاجمة البلاد « وأن القوم على التجهز لقصد البلاد » ، جهز الدزبرى جيشا وجعل حاكم حلب على مقدمته ، فتقابلوا مع الجيش البيزنطى بين مدينة حماه وأفامية « واشتد القتال بينهم ، ثم ان الله نصر المسلمين ، وأذل الكافرين » • وهكذا دارت الدوائر على البيزنطيين وقتل منهم عدد كبير ، وأسر ابن عم الامبراطور فافتدوه بمبلغ ضخم من المال ، وباطلاق سراح عدد كبير من أسرى المسلمين• وقد توقف خطر البيزنطيين بعد ذلك، «وانكف الروم عن الأذى بعدها »(٧١) •

★ ★ ★

أما عن الامبراطورة زوى فانها بزواجها من ميخائيل الرابع ، أخطأت تقدير الأمور مرة اخرى • ذلك أن ميخائيل أهملها كلية ، وفرض قيودا على حريتها الشخصية وتحركاتها ، وجعل من أخيه رقيبا عليها ، وذلك حرصا منه على الا يتعرض للمصير الذى سبق أن تعرض له سلفه رومانوس أرجيروس(٧٢) •

والواقع أن المستفيد الحقيقى من وراء تلك الزيجة كان حنا شقيق ميخائيل الرابع ، اذ خطط بدهاء لاستمرار الحكم فى أسرته ، وأخذ فى اعتباره الوفاة المرتقبة لأخيه ، فحصل على موافقة ميخائيل الرابع،وكذلك أقنع الامبراطورة زوى ـ بتبنى ابن أخته المسمى ميخائيل أيضا، والذى منح لقب قيصر(٧٣) •

---

(٧١) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٩١ ـ ٤٩٢ •

72. Ostrogorky: Op. cit, P. 323.

73. Ibid, P.326; Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter V,P. 198.

وكان أن تم لحنا تنفيذ مخططه ، فقد حدث بعد عودة ميخائيل الرابع من احدى حروبه ضد البلغار ، ان اشتد عليه المرض ، فانسحب الى أحد الأديرة ـ بعد أن تبنى ميخائيل ابن أخته ـ الا أنه توفى فى نفس اليوم ١٠ ديســـمبر ١٠٤١م(٧٤)/١٤ ربيع الثانى ٤٣٣هـ(٧٥) . وبمجرد وفاة ميخائيل الرابع خلفه ابن أختـــه ، وتوج باســم ميخائيل الخامس Michael v (٧٦) .

والحقيقة أن حـــكم ميخائيل الخـامس الملقـــب بالجلفاط(٧٧) The Calker, Calaphates ، أدى بعهد الأسرة البافلاجونية الى نهاية غير متوقعة(٧٨) ، وبمعنى آخر « أدت مطامع البلافلاجونيين الدنيئة وكراهيتهم الى تدميرهم»(٧٩) ذلك أن ميخائيل الخامس قابل احسان خاله اليه بالجحود فقبض عليه ونفاه، دون أن يرتفع صوت واحدا لحماية ذلك الخصى الذى كان مكروها من الجميع(٨٠) ثم ان ميخائيل الجلفاط اظهر مزيدا من الرعونة بعد ذلك فاتجه الى معاقبة الامبراطورة زوى أيضا . ويبدو أنه رأى منها على حد تعبير (بسللوس) ـ مصدر ازعاج شديد له ، لذلك استمر فى مراقبتها مراقبه صارمة ، كما كان الحال فى عهد ميخائيل الرابع ، ثم أتبع ذلك بمحاولة رادعة لابعادها عن حقل السياسة بعد اتهامها بمحاولة سم الامبراطور . وبالفعل حدث فى يوم عيـــد الفصح ١٠٤٢م أن نفيت زوى الى جـــزيرة برنسبو Principo

---

74. Ostrogorsky: Op.cit, P. 326; The Encyclopaedia Britannica, vol VI, p.p. 857-858.

(٧٥) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٩٩ .

76. Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, vol IV, 1, Chapter V.P. 198; The Encyclopaedia Americana, V. 19, P. 12.

هنا أخطأ ابن الأثير ، جـ ٩ ، ص ٥٠٢ فى القول بأن ميخائيل الخامس كان ابن شقيق ميخائيل الرابع وليس ابن أخته .

77. Previte Orton: Op.cit, P.274; The Encyclopaedia Ameriana, V. 19, P. 12.

والجلفاط هو الذى يسد شقوق السفينة .

78. Ostrogorsky: Op.cit, P. 326.

79. Previte Orton· Op.cit, P. 274.

80. Ostrogorsky: Op.cit, P. 326.

فى بحر مرمرة ولم تصحبها سوى وصيفة واحدة(٨١) ٠

ولا عبرة هنا بما جاء فى بعض المصادر العربية عن حقيقة موقف ميخائيل الخامس من زوجة خاله ٠ فقد ذكر القلقشندى أنه « أحسن السيرة وطلب من زوجة خاله أن تخلع نفسها عن الملك فأبت فنفاها الى بعض الجزر واستولى على المملكة سنة ٤٣٣هـ »(٨٢) ٠

وربما كان ابن الأثير أقرب الى الحقيقة عندما ذكر أن ميخائيل الخامس أحضر زوجة خاله « وطلب منها أن تترهب وتنزع نفسها عن الملك فأبت ، فضربها وسيرها الى جزيرة فى البحر »(٨٣) ٠

على أن ميخائيل الخامس لم ينعم بانتصاراته سوى فترة وجيزة(٨٤) فسرعان ما قامت ثورة عارمة ضمت المخلصين للأسرة المقدونية وحكم على ميخائيل الجلفاط « الذى تجرأ برفع يده ضد من ولدت فى الأرجون بالعزل » ثم سملت عيناه فى أبريل ١٠٤٢م(٨٥) شعبان ٤٣٣هـ ، وقيل انه سملت عينا خاله أيضا(٨٦) ٠

---

81. Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, vol IV, Part 1, Chaper V,P. 198. Psellus عن

بالنسبة لعيد الفصح ، يقال أن المسيح عليه السلام ارتفع بين تلاميذه الى السماء فى هذا اليوم ، ووعدهم بارسال روح القدس ٠ ويأتى هذا العيد يوم افطارهم بعد صيام أربعين يوما ٠ (الدمشقى : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، ص ٢٨٠_٢٨١) ٠ وعند اليهود يوافق ذكرى خروج بنى اسرائيل من مصر هربا من فرعون عابرين البحر وهو ما تعنيه كلمة فصح «عبور» (د٠ حسين سعيد : الموسوعة الثقافية، دار المعرفة ، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ، ص ٦٨٨) ٠

(٨٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص ٤٠٠ ٠

(٨٣) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٩٩ ٠

84. Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, vol. IV, Part 1, Chapter V, P. 198.

85. Ostrogorsky: Op.cit, P. 326.

86. Hussey: Op.cit, Cam Med. Hist, vol. IV, Part 1, Chapter V, P. 199.

(مجلة المؤرخ العربى)

هنا يعطينا ابن الأثير صورة مفصلة تمثلوجهة النظر العربيةعنأسباب الثورة التى أطاحت بأبناء الأسرة البفلاجونية المغتصبة للحكم ، وكيف أعيد العرش لورثة الأسرة المقدونية ، فيذكر أنه بعد أن نفى ميخائيل الجلفاط الامبراطورة زوى زوجة ميخائيل الرابع الى جزيرة فى البحر « عزم على القبض على البطرك والاستراحة من تحكمه عليه ، فانه كان لا يقدر على مخالفته »(٨٧) ٠ فطلب منه أن يعمل له طعاما فى دير ذكره بظاهر القسطنطينية ليحضر عنده ، وبالفعل خرج البطريرك الى الدير لينفذ ما طلبه الامبراطور ٠ وعندئذ أرسل الامبراطور « جماعة من الروس والبلغار » ، بعد أن اتفق معهم على قتـــل البطريرك سرا ، فقصدوه ليلا وحاصروه فى الدير ، فاستمالهم اليه بأن دفع لهم أموالا طائلة ، وخرج متخفيا « وقصد البيعة التى يسكنها وضرب الناقوس » فاجتمع الروم حوله ، فدعاهم الى عزل الامبراطور ، فأجابوه الى مطلبه وحاصروا ميخائيـل الخامس أو الجلفـــاط ، فأرســـل الأخيـــر الى (زوجته)(٨٨) وطلب منها أن تبـــرأه فرفضت « وأخرجته الى بيعـة يترهب فيها »(٨٩) ٠

ثم يستكمل ابن الأثير روايته بقـــوله : « ان البطريرك والـــروم « نزعوا زوجته(٩٠) من الملك » ، ومنكوا أختا لها صـــغيرة ـ اسمها (تذورة)(٩١) ـ وجعلوا معها خـدم أبيها يدبرون الملك ، وكحـلوا ميخائيل ، ووقعت الحرب بالقسطنطينية بين من يتعصب له وبين من يتعصبلتذورة والبطرك،فظفر أصحاب تذورة بهم ونهبوا أموالهم»(٩٢)٠

---

(٨٧) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٩٩ ٠

(٨٨) أخطأ ابن الأثير فى كتابه الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٩٩ ، عندما ذكـــر أن ميخائيل الخامس أرسل الى « زوجته وأحضرها من الجزيرة التى نفاها اليها » لأن التى نفيت هى زوجة خاله لا زوجته هو ، وربما كان سبب الخطأ هو أن الاســـمين متشابهين تماما أى ميخائيل الرابع وميخائيل الخامس ٠

(٨٩) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٩٩ ٠

(٩٠) المقصود زوى زوجة خاله لا زوجته هو ٠

(٩) المقصود ثيودورا ٠

(٩٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٤٩٩ ـ ٥٠٠ ٠

نعود مرة أخرى الى وجهة النظر الأخرى لنتابع ما دون فى المصادر والمراجع البيزنطية ، فنستشف منها أن الامبراطورة زوى برزت للجماهير فى نفس اليـــوم الذى تم فيه سمل عينى الامبراطور ميخائيل الخامس وخاله،وهى فى ثياب الراهبات،لا فى ثيابها الامبراطورية(٩٣) وكان أن أسرعت الجماهير الى دير Petrion وانتزعت منه أخت زوى الصغرى ـ ثيودورا ـ التى كانت قد ترهبت » وجروها رغم ارادتها الى كنيسة سانت صوفيا كى ينادوا بها امبراطورة بالاشـــتراك مع زوى »(٩٤) . وقيل ان ثيودورا كانت قد حجبت وفقا لطلب زوى(٩٥) .

ومرة أخرى نتوقف قليلا لنتعرف عن قرب على شخصية ثيودورا . فنجد أنها الابنة الصغرى للامبراطور فنسطنطين الثامن ، وكانت طويلة القامة مثله ، جافة ، سريعة فى لهجتها وكلامها ، ولم تكن على قدر من الجمال ، لكنها كانت تقية وفى نفس الوقت اتصفت بالبخـــل . هـــذا بالاضافة الى أنها كانت على غير وفاق باستمرار معأختها زوى(٩٦) حتى قيل ان زوى كانت شديدة الغيرة منها، وانها كانت تفضل معاملة ميخائيل السيئة عن مشاركة أختها ثيودورا فى الحكم(٩٧) .

وباعتبار الأختين الممثلتين الوحيدتين الشرعيتين للأسرة المقدونية، انتقل اليهما الحكم معا(٩٨) . ولو أن زوى أصرت على أن تكون لهـــا الأسبقية على أختها(٩٩) .

---

93. Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, vol. IV, Part 1, Chapter V, P. 198.
94. Idem, P.199.
95. OstrogorsKy: Op.cit, P. 326.
96. Hussey: Op.cit, Cam. Mad. Hist, vol. IV, Part, 1, Chapter V, p.p. 193-194.
97. Idem, P.199.
98. Ensslin (W): The Govermment and administrion of the Byzantine Empire, Cam. Med. vol. IV, Part 11, Chapter XX, P. 5; Ostrogorsky: Op.cit, P. 326; Previte Orton: Op.cit, P. 274.
99. Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, vol. IV, Part 1, Chaper V. P. 199.

وهكذا حكمت الأختان « المتبابنتان الشـخصية تماما الامبراطورية البيزنطية »(١٠٠) ٠ ورغم أنهمـــا كانتـا المثلتين الشرعيتين للأسرة المقدونية الا أنه كان يعوقهما عن مواصلة السهر على شئون الامبراطورية شيئان ، أولهما : أنهما كانتا فى ذلك الوقت امرأتين طاعنتين فى السن، وكان من الصعب عليهما توجيه الامبراطورية الى الطريق المستقيم ، مما مكن العسكريين والمدنيين خلال فترة حكمهما القصيرة من الاتحاد والعمل معا بانسجام ، بحيث كان الجميع يغتنمون أية فرصة للسيطرة على شئون الحكم(١٠١) وثانيهما : أن العـــداوة بين الاختـــين كانت متأصـــلة حتى أصبح من الضرورى العثـــور على رجـــل قوى ليمســـك بزمام الحكم(١٠٢) ٠

أما (بسللوس Psellus فيعلق على حكم زوى وثيودورا القصير بأنه « يمدنا بمثال فريد للحـــكم المشـــترك والمشاركة فى السلطـــة العليا »(١٠٣) ٠

وهكذا اتضحت حاجة الامبراطورية الملحة الى وجـــود رجل قوى على رأس الحكومة ٠ ولتحقيق هذا الغرض كان لابد من زواج احـــدى الاختين الكهلتين ٠ « وكانت ثيودورا لا ترغب فى الزواج »(١٠٤) ، أما زوى فقد شرعت فى البحث مرة أخـــرى ، وبطريقة مستمرة ، عن زوج ثالث لها،رغم أنها كانت قد بلغتالرابعة والستين من عمرها(١٠٥)٠ وبالفعل وجدت ضالتها فى « الفارس الوسـيم » قسطنطين مونوماخوس Constantine Monomachus (١٠٦) ، الذى كان أحـد أعضـاء مجلس

---

100. Previte Orton: Op.cit, P. 274.
101. Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, vol IV, Part 1, Chapter V,P. 199.
102. Ostrogorsky: Op.cit, P. 326.
103. Ensslin (W): Op.cit, Cam. Med. Hist, vol. IV, PartII Chapter XX, P. 5.
عن Psellus.
104. Ostrogorsky: Op.cit, P. 326.
105. Idem, P. 326.
106. Larousse Encyclopaedia..., Op.cit, P.297, The Encyclopaedia Americna, V. 7, P. 650.

السناتو البارزين ، فاتخـــذته زوجا ثالثـــا لها فى ١١ يونيه ١٠٤٢م/ ٤٣٣هـ(١٠٧) ٠

والواقع ان ابن الأثير كان أقرب الى الحقيقة حين أوضح فى أحداث سنة ٤٣٣هـ « أن الروم افتقروا الى ملك يدبرهم ، فكتبوا أسماء جماعة يصلحون للملك فى رقاع ، ووضعوها فى بنادق طين وأمروا من يخرج منها بندقة وهو لا يعرف باسم من فيها ، فخرج اسم قسطنطين ، فملكوه وتزوجته الملكة الكبيرة ، واستنزلت أختها الصغيرة تذورة عن الملك بمال بذلتها لها »(١٠٨) ٠

وثمة عبارة فى هذه الفقرة أخذت عن الترجمة العـــربية (للأب اسحق) مترجم كتاب تاريخ ابن العـبرى الى العـــربية والذى ســـماه (تاريخ الزمان) ، وهذه الترجمة مليئة بالأخطاء التاريخية واللغوية ٠ ذلك أنـــه أورد فى أحـــــداث ٤٣٣هـ / ١٠٤٢م ما نصـــه : « توفى ميخائيل ملك الروم دون عقب ، وتونى شـــئون المملـــكة ابنتاه زواى وثيودورا ثلاثة أشهر ٠ ثم عقـــد الأقطاب المشـــورة وانتقوا منهم ثلاثة أشخاص كفوئين ، وكتبوا أسماءهم فى أوراق وضـعوها فى صـندوقة ختموها بالشمع وأحضروا صبيا مـــد يده واستخرج أحدها وبها اســـم مونوماخوس فزفرا اليه ثيودورا المذكورة ونادوا به ملكا باسم قسطنطين٠ وأسنت ثيودورا لأختها زواى تسعة قناطير ذهبا بدلا من الملك »(١٠٩) ٠

---

107. Ostrogorsky · op.cit.P.326.

(١٠٨) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٥٠٠ ٠

(١٠٩) ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ٩١ ٠

هنا يورد ابن العبرى زواى باســـم Zoai أو Zai ، ثنودورا باســـم Theodora ٠ وبمراجعة ترجمة النص من الأصل لابن العبرى نجد فيه عـــدة أخطاء منها دون عقب = دون أبناء ذكور ، وانتقوا منهم ثلاثة = وانتقوا من بين أبنائهم ، كفوئين = يصلحون للحكم ، وأسنت ثنودورا لأختها = وأعطت ثيودورا أختهـــا ٠

Bar Hebraeus: Op.cit, V. 1,P. 200.

وعندما تناول هذا النص بالتحليل والنقد ومقارنته فى نفس الوقت بتاريخ ابن العبرى الأصلى نلاحظ ما يلى :

أولا : يتفق ابن العبـرى والمترجم على أنه فى سنة ٤٣٣هـ/١٠٤٢م سملت عينا ميخائيل الخامس وأبعد الى أحد الأديرة كما مر بنا ، ولا نعلم ان كان قد توفى فى تلك السنة أم لا .

ثانيا : كيف يكون ميخائيل قد توفى دون عقب ، ثم تتولى ابنتاه ، زواى وثنودورا ـ كما سماهما المترجم ـ شئون المملكة ؟ وهنا نجد الرد ببساطة على تساؤلنا فى أن المترجم أخطأ فى ترجمة without sons أى (دون أبناء ذكور) فجعلها (دون عقب) .

والواقع أن ابن العبرى خلط هنا بين ابنتى قسطنطين الثامن وبين ابنتى ميخائيل المزعومتين هنا .

ثالثا : أن ثيودورا (ثنودورا) لم تتـــزوج وأن التى تزوجـــت من قسطنطين مونوخوس هى زوى ابنة قسـطنطين الثـــامن لا أختها ثيودورا ، وأنها اعتلت العرش الى جانبه ، كما ســـنرى . وعليه يكون الجزء الأخير من الفقرة وهو ، أن « ثنودورا أسنت لأختها زوى تسعة قناطير ذهبا بدلا من الملك » لا محل لها من الصحة .

أما قسطنطين مونوماخوس فكان ينتمى الى أسرة عريقة(١١٠) ، اتصف بالشهامة ورحابة الصدر والسخاء فى عطائه(١١١) وكانت ثقافته عالية ، الا أنه كان فاسقا خليعا(١١٢) . وقد توج امبراطورا فى اليوم التالى لزواجه من زواى ١٢ يونيـه ١٠٤٢م(١١٣)/شوال ٤٣٣هـ باســـم

---

110. Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hisl, vol. IV. Part1, Chapter, V, P. 199.

هنا يذكر نفس المرجع أنه كان قد حبس فى مدينة ملطية كأحد المشكوك فيهـــم سياسيا فى عهد ميخائيل الرابع .

(١١١) ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ٩١ .

Bar Hebraeus: Op.cit, V. 1, P. 200 .

112. Previte Orton: Op.cit, V. 1, P. 274.

113. Ostrogorsky: Op.cit, P. 326; Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter V, 199.

قسطنطين التاسع مونوماخوس • وعند هذا الحد لا تكون تلك الفتـــرة الفاصلة من الحكم النسائى(١١٤) التى استمرت حوالى ثلاثة أشهر ، قد انتهت •

وقد اختلفت الآراء فى وضع قسطنطين التاسع عنـــدئذ ، فالبعض ذكر أنه بتوليه العرش الامبراطورى « تخلت له الســيدتان عن السيادة بصورة آلية »(١١٥) فى حين أوضح رأى آخر أنه أصبح حاكما مشاركا لزوى وثيودورا(١١٦) وأنه لم يحاول أن يضع أى نوع من القيود على شريكتيه فى الحـــكم(١١٧) « فتمتعت الأختان مع الامبراطور العـاشق المحب للملذات ، بتبديد الأموال العامة »(١١٨) •

★ ★ ★

أما عن العلاقات الاسلامية البيزنطية فى فترة حـــكم قنسطنطين التاسع وزوى،فأول ما تسعفنا به المصادر التى بين أيدينا ـ فى حوادث ٤٣٥هـ(١١٩)/١٠٤٤م(١٢٠) هو طـــرد الغـرباء المسلمين والنصارى الموجودين فى العاصمة البيزنطية ، والذين بلغ عددهم أكثر من مائة ألف شخص • وكان سبب ذلك أنه سرت شائعة فى العاصمة بأن قسطنطين قتل زوى وثيودورا ابنتى قسطنطين الثامن ، وعنـدئذ ثار الأهالى وأعملوا النهب والسلب فى البلد ، فبرز لهم قسطنطين وسألهم عن السبب فأجابوه أنه قتل الملكتين وأفسد الملك فرد عليهم بنفى تهمة القتل عنه وأخرج لهم الملكتين • فلما رآهما الناس سكنوا ، وعندما تقصى حقيقة الأمر علم أن الغرباء فى القطسطينية هم سبب ذلك الشغب ، وأشير عليه بابعادهم ، فنودى « أن لا يقيم أحد ورد البلد منذ ثلاثين سنة ، فمن أقام بعد ثلاثة

---

114. Ensslin (W): Op.sit, Cam. Med. Hist, V.IV, Part XX,5.

(١١٥) رنسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ٧٤ •

116. The New Encyclopaedia Britannica, V.III, P. 102.

117. Ostrogorsky: Op.cit,P.327.

118. Idem: P.327.

(١١٩) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٥١٥ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٥١ •

(١٢٠) ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ٩٤ •

أيام كحل » ـ أى سملت عيناه ـ لذلك رحل عن العاصمة البيزنطية أكثر من مائة ألف مسلم ونصرانى « ولم يبق بها أكثر من اثنتى عشر نفسا ، ضمنهم الروم فتركهم »(١٢١) ٠

وقد شهدت سنة ٤٣٧هـ/١٠٤٦م علاقات ودية بين البيزنطيين والفاطميين فى مصر ٠ يدل على ذلك تلك الهدية القيمة التى أرسلها قسطنطين التاسع مونوماخوس فى ثامن ذى الحجة/يونيه من تلك السنة ، الى الخليفة الفاطمى المستنصر بالله ٠ وقد اشتملت على « ثلاثين قنطارا من الذهب ، وكان من جملتها بغل وحصان من أحسن الدواب وأغلاها قيمة ، كل منهما عليه ثوب ديباج رومى منقوش ثقيل ، وخمسين بغلا عليها مائة صندوق مصفحة بالفضة ، فيها آنية الذهب والفضة ، منها مائة قطعة بميناء ، وفيها من الديباج والسندس والأبريسم والعمائم المعلمة مالا يقدر على مثله »(١٢٢) ٠ وقد رد المستنصر بالله على الامبراطور البيزنطى بهدية مثلها « من الجوهر والمسك والعود والطراز ، عمل تنيس ودمياط ، ما هو أكثر قيمة مما بعثه »(١٢٣) ٠

وقد تجددت العلاقات الودية بين المسلمين والبيزنطيين فى٤٣٩هـ/ ١٠٤٧ ـ ١٠٤٨م وذلك بتجديد الهدنة « بين صاحب مصر وبين الروم ، وحمل كل واحد منهما لصاحبه هدية عظيمة »(١٢٤) ٠ لكن حدث فى نفس السنة السابقة أيضا ـ ٤٣٩هـ ـ أن سير المعز باديس صاحب أفريقية أسطولا الى جزائر القسطنطينية فظفر وعنم وعاد(١٢٥) ٠

---

(١٢١) ابن الأثير : الكامل ، ج ٩ ، ص ٥١ ؛
كذلك ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ٩٤ ٠ أما ابن كثير : البداية ج ١٢ ، ص ٥١ فيذكر أن « ملك الروم » أى الامبراطور نفى من القسطنطينية كل غريب له فيها دون العشرين سنة ٠

(١٢٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ١٩٤ ٠ هنا يذكر المقريزى أن القنطار عندهم سبعة آلاف دينار ومئتان دينار ٠ أما جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٥ (عن الأبشيهى : المستطرف فى كل فن مستطرف ، فيذكر أن قيمة كل قنطار منها عشرة آلاف دينار عربية) ٠

(١٢٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، ج٢ ، ص ١٩٤ ٠

(١٢٤) ابن الأثير ٠ الكامل ، ج٩ ، ص ٥٤١ ٠

(١٢٥) ابن الأثير : نفس المصدر والجزء ، ص ٥٤٢ ٠

أما من ناحية الجبهة الشرقية فكان الوضع على عكس ذلك ، بعد ظهور الأتراك السلاجقة ، الذين وفدوا عنى العـــراق من بلاد ما وراء النهر ٠وكان تحمسهم للاسلام وللمذهب السنى على وجه الخصوص أبرز ما يميزهم ٠ وقد وجدوا فى بلاد العراق الخصبة وما حولها ، وفى الهيمنة على الخلافة العباسية ماحملهم على التفكير الجدى فى التوسع غربا، فقام زعيمهم طغرلبك١٠٣٨م/٤٣١هـ باحتلال جرجان وطبرستان ثم خوارزم، كما تمكن من هزيمة السلطان مسعود الغزنوى ، واحتل نيسابور عاصمة خراسان ٠ ومازال السلاجقة يواصـــلون حركتهم التوسعية حتى دخلوا بغداد فى ١٠٥٥م/٤٤٦ ــ ٤٤٧هـ٠ وكان من الطبيعى أن يحتك السلاجقة المتحمسون للاسلام بالامبراطورية البيزنطية ، فأخذ السلاجقة فى الاغارة على أطرافها فى البلاد الأرمينية(١٢٦) ٠

من ذلك أنه حدث سنة ٤٤٠هـ/١٠٤٨ ــ ١٠٤٩م اذ عبر جمع غفير من الأتراك الغز من بلاد ما وراء النهر الى بلاد ابراهيم ينال ، فرأى أن بلاده تضيق بهم وبمطالبهم ، فأخبرهم بذلك وأشار عليهم بأن « تمضوا الى غزو الروم ، وتجاهدوا فى ســبيل الله وتغنمـــوا ، وأنا سائر على أثركم ومساعد لكم على أمركم » عندئذ تقدموا الى الحدود الشرقية للدولة البيزنطية ، وسار هو فى اثرهم ، فوصلوا ملازكرد وآرزن الروم وقاليقلا (قيليقية) ،حتى بلغوا طرابزون، فقابلهم جيش من البيزنطيين والأبخار، يقدر بحوالى « خمسين ألفا » ٠ ودارت بينهم عدة معارك ، تبادلوا فيها النصر والهزيمة « وكان آخر الأمر الظفر للمسلمين » فقتلوا عددا كبيرا من البزينطيين ، وأسروا « جماعة كثيرة من بطارقتهم ٠ وممن أســـر قاريط (فاربط) ملك الأبخار » فحاول أن يفدى نفسه بدفع ثلاثمائة ألف دينار وهدايا بمائة ألف ، فرفض ابراهيم اينال ٠« ولم يزل يجوس فى تلك البلاد وينهبها ، الى أن بقى بينه وبين القسطنطينية خمســة عشر يوما» واستولى المسلمون على تلك النواحى فنهبوها وغنموا مافيها، وسبوا أكثر من مائة ألف رأس ، وأخذوا من الدواب والبغـــال والغنائم والأموال مالا يحصى ٠ وقيل أن الغنائم حملت على عشر آلاف عجلة وأن

---

(١٢٦) حسن حبشى : الحرب الصليبية الاولى ، ص ٣٠ ــ ٣١ ٠

فى جملة الغنيمة تسعة عشر ألف درع(١٢٧) ٠

ومع كل ذلك اختـــار الامبراطـــور قسطنطين التاسع أن يحتفظ بعلاقاته الودية الهادئة مع المسلمين ٠ وخير دليل على ذلك أنه أرســل الى السلطان طغرلبك هدية عظيمة فى ٤٤١هـ/١٠٥٠م وطلب منه عقد معاهدة سلام بينهما ، فوافق طغرلبك على ذلك ؛ بشرط تعمير مســجد القسطنطينية ، واقامة الصلاة والخطبة فيه لطغرلبك(١٢٨) ٠ هــذا بالاضافة الى احتفاظ الامبراطور بعلاقات ودية أيضا مع الخلافة العباسية، والتى تمثلت فى تلك الرسالة التى أرسلها فى ٤٤٣هـ/١٠٥٢م الى الخليفة القائم والمكتوبة بالرومية الى جانب ترجمة لها بالعربية تخللت سطورها، وقد رقمت بحروف ذهبية على قطعة أرجوانية(١٢٩) ٠

والواقع أنه بتقدم زوى فى السن صارت أكثر تسامحا(١٣٠) وظلت كذلك حتى توفيت فى ٢٦ مــايو ١٠٥٠م أول المحــرم ٤٤٢هـ(١٣١) « وودعت بذلك حياتها الخيالية الغريبة »(١٣٢) ٠

وفى ١١ ينــاير ١٠٥٥ م/ ٩ شــوال ٤٤٦هـ توفى قســطنطين التاسع(١٣٣) ، ويبدو أنه كان قد أعطى رأيه فيمن يخلفه على العرش٠

---

(١٢٧) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٥٤٦ أحداث ٤٤٠هـ ٠

وأبخار بالفتح ثم السكون والحاء معجمة وألف وزاى اسم ناحية من جبل القبق المتصل بباب الأبواب ، وهى جبال صعبة المسلك وعرة لا مجال للخيل فيها تجاور بلاد اللان ٠ (ياقوت الحموى : معجم البلدان ، المجلد الأول ، دار صادر ودار بيروت حرف الألف والباء وما يثالثهما) ٠

(١٢٨) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، جـ٢ ، ص ١٦٩ ٠

(١٢٩) ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ٩٧ ــ ٩٨ ، ولقد وردت السنوات فى الأصل على النحو التالى ٤٤٣/١٠٥١م

130. Ostrogorsky: Op.cit, P.327.

131. Idem: P.616: Previte Orton: Op.cit, V.1, P.274.

132. Previte Orton: Op.cit, V.1, P.274.

133. Ostrogorsky: Op.cit, P.337; Hussey: Op.cit, Cam. Med.Hist, V. IV, ChapterV, P.204.

هنا أخطأ ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٦٠٢ ــ ٦٠٤ ؛

Bar Hebraeus : op.cit, V.1, P.207.

وتم الأمر دون علم ثيودورا ، الممثلة الوحيدة الباقية للبيت المقدونى ٠ وعندما سمعت ثيودورا بما حـــدث عـــادت الى القصر وسيطرت على الحرس الامبراطورى، وفى الحال تقلدت الأطلال الباقية للحكم »(١٣٤) وعادت الى كامل سـلطانها(١٣٥) وهـــكذا باشرت ثيودورا الســـلطة الامبراطورية بمفردها حتى توفيت فى آخر أغسطس ١٠٥٦م(١٣٦) أو بداية سبتمبر ١٠٥٦م(١٣٧) / السبت ١٦ جمادى الآخرة ٤٤٨هـ ٠

والواقع أن ثيودورا قامت بمحاولة جادة تتصف بالعزم التام على ادارة دفة الحكم ٠ حقيقة أنها لم تتخذ روجا لكنها اختارت وزيرا لها هو (Leo Paraspondylus) وكان « واقعيا عنيدا جادا فى مواصلة العمل، فعنى بالسياسة الاقتصادية فى الداخل وعمـــل على اقرار الســـلام فى الخارج »(١٣٨) ٠

ويعقب (استروجورسكى) على نهـاية الأسرة المقـــدونية بقوله « وبوفاة ثيودورا انتهت الأسرة المقدونية الشهيرة ، فكانت نهاية غريبة حقا لتلك الأسرة البيزنطية التى جاهدت بشدة كى تدعم نفســها ٠ وفى النهاية تماسكت بعناد لتواصل البقاء ، وذلك على مدى الثلاثين ســـنة الأخيرة ، وبذلك مضت كل أعمالها العظيمة ذات الشهرة البعيدة المدى دون أن يتغنى بها »(١٣٩) ٠

ابن العبرى : تاريخ الزمان ، ص ٩٨ ، فى القول بأن قنســـطنطين التاسع كان متزوجا من ثيودورا ابنة قنسطنطين الثامن لأن قنسطنطين التاسع كان متـزوجا من زوى لا ثيودورا ٠ والراجح أن الثانى أخذ عن الأول هذا الخطأ ٠

134. Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V.IV, ,Part 1, Chapter V P.204.

(١٣٥) رنسيمان : الحضارة البيزنطية ، ص ٧٤ ٠

136. Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part1, Chapter V, P.205.

حيث ذكرت هسى نقلا عن Scylitzes-Cedrenus ان وفاتهـــا كانت فى ٣١ أغسطس ، أما هى فتقول انها كانت فى ٢١ أغسطس ٠

137. Ostrogorsky: Op.cit, P.338.

138. Hussey: Op.cit, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter V, P.204.

139. Ostrogorsky: Op.cit, P.338.

اما عن العلاقات الاسلامية البيزنطية فى الفترة الأخيرة من حكم قسطنطين التاسع وفترة حكم ثيودورا حتى نهاية عهد الأسرة المقدونية، فأهم ما يلاحظ فيها بالنسبة للجبهة الشرقية ، أن طغرلبك أنهى الهدنة بين السلاجقة وبين البيزنطيين وتقدم فى أواخر سنة ٤٤٦هـ/١٠٥٥م الى أرمينية ثم الى ملازكرد التابعة نلبيزنطيين فحاصرها وضيق على أهلها ونهب ما جورها من البلاد وخربها • وعندئذ دخل نصر الدولة بن مروان حاكم ديار بكر فى طاعته وأرسل اليه انهدايا الكثيرة والقوات كى تحارب البيزنطيين تحت لوائه(١٤٠) • وكان أن أوغـــل طغرليك فى أراضى البيزنطيين وأحرز عليهم انتصارت باهرة ونهب بلادهم وقتـــل وسبى العديد منهم(١٤١) « وبلغ فى غزوته هذه الى أرزن الروم » ثم عاد الى أذربيجان عندما دخل عليه فصل الشتاء(١٤٢) •

وأما عن العـــلاقة مع الفاطميين ، فثمة رأى يذكـــر أن الخليفة المستنصر بالله الفاطمى استغل فرصة صفاء العلاقات بينه وبين الدولة البيزنطية وعمل على انعاش الحالة الاقتصادية فى دولته ، فأرسـل الى الامبراطور قسطنطين التاسع ، على أثر المجاعة التى حلت بمصر سنة ٤٤٦هـ/١٠٥٥م يطلب منه أن يمده بأربعمائة ألف أردب من القمح • وقد أظهر الامبراطور استعداده لاجابة هذا الطلب ، لكنه لم يلبث أن توفى وخلفته الامبراطورة ثيودورا ، فاشترطت لمعونة مصر أن يمدها المستنصر بالجنود اذا ما اعتدى على بلادها أى معتـــد • غير أن المستنصر رفض هذا الشرط ، فأجابته ثيودورا على ذلك بأن حالت دون ارسال الغلال الى مصر(١٤٣) •

---

(١٤٠) ابن الأثير • الكامل ، جـ٩ ، ص ٥٩٩ •

(١٤١) المصدر السابق نفس الجـــزء والصفحة ؛ أبو الفدا : المختصر ، جـ٢ ، ص ١٧٢ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص ٦٥ •

(١٤٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ٩ ، ص ٥٩٩ •

143. Canard (M.): Byzantium and the Muslim World to the Middle of the eleventh century, Cam. Med. Hist, V. IV, Part 1, Chapter XVII, P.726.

جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٦ •

وقد زاد الوضع تعقيدا بين البيزنطيين والفاطميين عنـــدما أراد الخليفة المستنصر أن يرد اعتبار الفاطميين بارسال جيش فاطمى لمحاربة البيزنطيين ، بقيادة مكين الدولة الحســـن بن ملهم ، ونودى فى بلاد الشام بالغزو والجهاد(١٤٤) ٠ وكان أن تنقل الجيش الفاطمى فى أجزاء مختلفة من بلاد الشام حتى استقر به المطاف أخيرا عى أنطاكية ، وعندئذ أرسلت الامبراطورة ثيودورا أسطولا الى أنطاكية مكونا من ثمانين قطعة « وخرج دوقس انطاكية وبطركها فى جماعة فظفروا بشينيين للمسلمين معهما الغنائم»(١٤٥) ٠ وبذلك حلت الهزيمة بالمسلمين وأسر منهم عدد كبير(١٤٦) وقتل من الفريقين عدد كبير وعاد الأسطول البيزنطى الى اللاذقية(١٤٧) ٠

وكان أن أرسل الخليفة المستنصر سفارة من قبله ، الى الامبراطورة ثيودورا ، على رأسها أبو عبد الله القضاعى(١٤٨) ٠ ولكن نوايا الروم تجاه الدولة الفاطمية اتضحت عندما سمحتالامبراطورة ثيودورا بالخطبة للخليفة القائم بأمر الله العباسى ، أثناء وجود أبى عبد اللـــه القضاعى سفير الفاطميين بالقسطنطينية ٤٤٧هـ/١٠٥٥م(١٤٩) ٠ وقد علل أحد الأساتذة المحدثين هذا الاتجاه بقوله : « أنه لا غرو فقد كان السلاجقة فى ذلك الوقت أشد خطرا على البيزنطيين من الفاطميين الذين اضمحل سلطانهم فى بلاد المغـــرب وأصبحوا يواجهون كثيرا من الصـــعاب فى مصر »(١٥٠) ٠

وكان رد الخليفة المستنصر على تلك الاساءة التى لحقت بسفيره بل

---

(١٤٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، ص ٢٣٠ ٠

(١٤٥) المصدر السابق ، ص ٢٢١ ٠ والشوانى مركب حربية بها مائة وأربعـون مجدافا ، وكانت تعد أكبر سفن الأسطول (حاشية عن دوزى ، قوانين الدواوين) ٠

(١٤٦) جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٦ ٠

(١٤٧) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، ص ٢٣١ ٠

(١٤٨) علية الجنزورى : المرأة فى الحضارة البيزنطية ، ص ١٢٥ حاشية ٦٥١ ٠

(١٤٩) ابن ميسر : أخبار مصر ، جـ٢ ، حـوادث ٤٤٧هـ ؛ المقـريزى : إتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، ص ٢٣٠ ٠

(١٥٠) جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٦ ٠

بخلافته كلها أن أخذ نفائس وكنوز كنيسة القيامة(١٥١) « فأحاط بما فى قمامة وأخذه وأخرج البطرك منها الى دار مفردة(١٥٢) هذا بالاضافة الى اغلاقه للكنائس بمصر وزيادة الجزية على النصارى ، بل ومطالبته الرهبان بها عن أربع سنوات(١٥٣) وقد أدت كل تلك الاجراءات الى التوتر الشديد فى العلاقة بين الفاطميين والبيزنطيين(١٥٤) ٠

★ ★ ★

ولم يلبث أن ضغط حزب البلاط على الامبراطورة ثيودورا فى ١٠٥٦م/٤٤٨ - ٤٤٩هـ كى تختار من يخلفها فى الحكم ٠ فوقع اختيارها على البطريرك ميخائيل Michael ، المعروف باسم العجوز أو (ستراتيوتيكوس Stratioticus) ٠ فلما ماتت ثيودورا فى بداية سبتمبر ١٠٥٦م / منتصف جمادى الآخرة ٤٤٨هـ ، خلفها ميخائيل على العرش باسم ميخائيل السادس Michael VI ٠ ولم تتجاوز مدة حكمه سنة واحدة ، تألفت أثناءها جبهة لمقاومته محورها الجيش المرابط فى آسيا الصغرى ، وهو الذى نادى بالقائد اسحاق كومنين Isaac Comnenus امبراطورا(١٥٥) ٠

وهكذا طويت فترة عصر الحكم النسائى وهى فترة لا تخلو من أحداث جسام فى الداخل والخارج ، وبخاصة فيما يتعلق بالعلاقة مع المسلمين ، فضلا عما زخرت به تلك الفترة من اتجاهات تلقى بعض الضوء على ما كان يجرى داخل البلاط البيزنطى ٠

---

(١٥١) المرجع السابق ، ص ٢٤٧ ٠

(١٥٢) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، ص ٢٣٠ ٠

(١٥٣) المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحة ٠

(١٥٤) المقريزى : اتعاظ الحنفا ، جـ٢ ، ص ٢٣٠ ؛ جمال سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص ٢٤٧ ٠

155. Ostrogorsky: Op.cit, P. 338; Larousse Encyclopaedia of Ancient andMedieval History, P.297.

المصادر والمراجع

أولا : المصادر العربية :

١ - ابن الأثير الجزرى : (ت ٦٣٠هـ/١٢٢٢م)
أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى الملقب بعز الدين : الكامل فى التاريخ ، الجزء التاسع ، دار بيروت للطباعة والنشر ، بيروت ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م .

٢ - ابن أيبك الدوادارى : (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م)
أبو بكر بن عبد الله : كنز الدرر وجامع الغرر ، الجزء السادس ، الدرة المضية فى أخبار الدولة الفاطمية ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٣٨٠هـ/١٩٦١م .

٣ - ابن تغرى بردى : (ت ٨٧٤هـ/١٤٦٩م)
جمال الدين يوسف : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب ، جـ٤ ، (د.م ، د.ت) ، جـ٥ ، من سلسلة تراثنا ، طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب .

٤ - ابن العبرى : (ت ١٢٨٦/٦٨٥م)
أبو الفرج جمال الدين : تاريخ الزمان ، نقله الى العربية الأب اسحق أرملة وصدر تباعا فى مجلة الشرق (١٩٤٩ - ١٩٥٦) ، قدم له الأب الدكتور جان موريس فييه فى المناسبة المئوية السابعة لوفاة المؤلف ١٢٨٦ - ١٩٨٦ ، دار الشروق ، بيروت ، لبنان ١٩٨٦ .

٥ - ابن القلانسى : (ت ٥٥٥هـ/١١٦٠م)
أبو يعلى حمزة : ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ١٩٨٠ .

٦ - ابن كثير : (ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)
أبو الفدا الحافظ : البداية والنهاية ، الجزء الثانى عشر ، الطبعة الأولى ، بيروت ١٩٦٦ .

٧ - ابن ميسر : (ت ٦٧٧هـ/١٢٧٨م)
أبو عبد الله تاج الدين محمد بن على بن يوسف : أخبار مصر ، الجزء الثانى ، مصر ١٩١٩ .

٨ ـ أبو الفدا : (ت ٧٣٢هـ/١٣٣١م)
عماد الدين اسماعيل : المختصر فى أخبار البشر ، الجزء الثانى ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ٠

٩ ـ السيوطى : (ت ٩١١هـ/١٥٠٥م)
الامام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر : تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد ، الطبعة الأولى ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م ٠

١٠ ـ القلقشندى : (ت ٨٢١هـ/١٤١٨م)
أبو العباس أحمد بن على : صبح الأعشى فى صناعة الانشا ، الجزء الخامس ، بيروت ١٩٨٠ ٠

١١ ـ المقريزى : (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)
تقى الدين أحمد بن على : اتعاظ انحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، تحقيق الدكتور حلمى محمد أحمد ، الجزء الثانى ، القاهرة ، ١٣٩٠هـ/١٩٧١م ٠

١٢ ـ ياقوت الحموى : (ت ٦٢٦هـ/١٢٢٩م)
شهاب الدين أبو عبد الله : معجم البلدان ، المجلد الأول ، دار صادر ودار بيروت ٠

ثانيا : المراجع العربية والمعربة :

١ ـ حســـن حبشى :
الحرب الصليبية الأولى ، دار الفكر العربى ، ١٩٥٨ ٠

٢ ـ رنسـيمان : ستفن :
الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، مراجعة زكى على ، من سلســلة الألف كتاب ، الناشر مكتبة النهضــة المصرية ، ١٩٦١م ٠

٣ ـ علية عبد السميع الجنزورى :
المرأة فى الحضارة البيزنطية ، الناشر مكتبة الأنجلو المصرية ، الطبعة الأولى ، ١٩٨٢ ٠

٤ ـ محمد جمال الدين سرور :
سياسة الفاطميين الخارجية ، دار الفـكر العــربى ، ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م ٠

ثالثا : المصادر والمراجع الأجنبية :

— Bar Hebraeus:
The Chronography of Gregory Abul Faraj, The Son of AAron the HebrewPhysician, the First Part of His Political History of the world, Translated from Syriac by Ernest A. Wallis Budge, Volume 1, English translation, Oxford University Press, London, 1932.

— Canard (M.) :
Byzantium and Muslim world to the Middle of the eleventh century, Cam. Med. Hist., V. IV, The Byzantine Empire, Part 1, Byzantium and Its neighbours, Chapter XVII.

— Encyclopaedia Americana, V.19.

— Ensslin (W.) :
The Government and administration of the Byzantine Empire Cam. Med. Hist, V. IV, The Byzantine Empire Part II, Government, Church and Civilization, Chapter XX.

— Hussey (J.M.) :
The Later Macedonians, the Comneni and the Angeli 1025-1204, Cam. Med. Hist, V. IV, Part1, Chapter V.

(مجلة المؤرخ العربى)

— Larousse Encyclopaedia of Ancient and Medieval History, General Editor: Marcel Dunan Honorary, Foreward by Arnold Toynbee.

— Ostrogorsky (G.):
History of the Byzantine state, translated by Joan Hussey, Oxford, 1968.

— Previte Orton (C.W.):
The Shorter Cambridge Medieval History, V.1, Cambridge University Press, 1977.

— The New Encyclopaedia Britannica, V.V1, 1768.